الشاعر الفيلسوف عبد الغفار مكاوى

بقلم: أ. د./ حسن حنفى(*)

هو روح الشاعر والفنان وعقل الفيلسوف المتأمل. والشاعر يسبق الفيلسوف مثل هيدجر. فالإنسان يعيش فى هذا العالم شاعرا قبل أن يكون فيلسوفا. فالشعر هو أصل الفلسفة. لذلك أحال كثير من الشعراء أبطالهم إلى هوميروس. الشعر يدرك ماهية الوجود، والفلسفة تخضعه للتحليل والتصورات. وإذا تأمل الفيلسوف فإنه يتأمل فى تجربته الشعرية. وكلاهما، الشعر والفلسفة إحساس مرهف بالعالم. التجربة واحدة ثم تختلف الصياغات، الخطاب الفلسفى فى الفلسفة والبيت الشعرى فى الشعر. وهو تقليد ألمانى عند هيلدرلن ولسنج وجوته وهاينى والرومانسيين الألمان.

وبعد عودتى من فرنسا عام ١٩٦٦ تعرفت على مجموعة عزاب كلية الآداب الذين يبحثون عن زوجات فى أشخاص المعيدات الجدد. وكانت أجملهن فى قسم الصحافة قبل أن يستقل ككلية للإعلام. وكنا نجتمع فى شقة عبد الغفار مكاوى فى المنيل أو شقة عبد المنعم تليمة فى الروضة أو فى شقة النعمان القاضى فى بين السرايات حتى الصباح. وكان شعارنا «عندما يأتى المساء» أى عندما يحل الليل يبدأ الشراب حتى الفجر. فننزل للبحث عن وجبات الإفطار، الفول والطعمية فى المحلات التى تفتح أبوابها منذ الفجر للعمال قبل الذهاب إلى أعمالهم.

وكنا جميعا ننتظر التعيين سواء حاملى الدكتوراه من الداخل مثل تليمة والقاضى أو حامليها من الخارج مثلى. ومصر كانت فى محنة الهزيمة فى ١٩٦٧. وكان يعز علينا المطالبة بأمور شخصية وسط محنة الوطن الأم. وسهير القلماوى تريد أن تعين تلميذها تليمة قبل أن تسعى فى تعيين الآخرين وهى عضو بارز فى مجلس الكلية. وأخيرا لقط فؤاد زكريا مكاوى

(*) أستاذ الفلسفة بكلية الآداب – جامعة القاهرة، ومقرر لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة والأمين العام للجمعية الفلسفية المصرية.

ليعينه فى عين شمس، وبعدها إعارة إلى الكويت حيث أُعير بعد ثلاث سنوات من التعيين. ولما أراد عبد الرحمن بدوى أن يقوم بنفس الشيء معى. فقبلت التعيين فى عين شمس ولكن لم تكن لى ذكريات هناك. وأخبرته أن الحوائط لا تكلمنى. فاتهمنى بأنى «عيّل» وأن الحوائط لا تتكلم. فسحبت تعيينى وعيّن بدلا عنى عزمى إسلام. وفضلت الانتظار عاما بأكمله حتى يتم تدبير نقل درجة من قسم إلى قسم وموافقة رئيسى القسمين ثم مجلس الكلية ثم مجلس الجامعة ثم وزير التعليم العالى. واقترح الأهوانى رئيس القسم وقتئذ أن يتم تعيينى مباشرة بلا إعلان. يكفى حصولى على الدكتوراه من فرنسا، جامعة السربون، دون ما حاجة إلى تزكية أخرى.

ولما كان العمر يتقدم وحياة العازب ينقصها القرين. سألنى عبد الغفار يوما: ما رأيك فى صاحبة العيون الخضراء؟ قلت: لا تتردد. وسألتنى صاحبة العيون الخضراء ما رأيك فى صديقك الشاعر الفيلسوف، لقد طلبنى؟ قلت: لا تترددى. والحمد لله قران موفق وذرية صالحة.

ولما كان الحسد أمرا شائعا بين الزملاء كان عبد الغفار موطنا للحسد، ترجمة، وتأليف من الصين وألمانيا. وأصيب فى عينيه من كثرة الانكباب على القراءة والكتابة فى عصر لم تكن الحاسبات الآلية فيه قد شاعت. وقد أغراه رئيس القسم حينئذ فى عين شمس بالسفر إلى الكويت إعارة. فذهب وزرع الحكمة هناك لفترة مؤقتة حتى طالت المدة وتحولت الإعارة من وسيلة لتحسين الدخل إلى غاية فى ذاتها. ففصل من عين شمس هو وزملاؤه الذين ساروا على نفس نهج رئيس القسم. وبعد غزو الكويت عادوا إلى مصر، الوطن الأم، يبحثون عن وظائفهم الضائعة. فوجدها البعض ولم يجدها البعض الآخر. وفضّل الشاعر الفيلسوف المكوث فى المنزل والتحول إلى كاتب من منازلهم. فماذا ستعطيه الوظيفة وهو الذى كان يعطيها الاسم والمضمون. وظل صامدا على اختياره. لا يشكو عزلة أو ابتعادا اختياريا من الجامعة. لا يمارس أى نشاط فلسفى إلا نادرا وبعد ضغط عليه فى إعطاء محاضرة فى الجمعية الفلسفة المصرية أو ندوة بالقسم كان آخرها يوم تكريمنا له من قسم الفلسفة بآداب القاهرة ولمسة وفاء له. وحضر وأعطى الكلمة الأخيرة وهو لا يدرى أنها كلمة الوداع. وبدأ بصره يضعف. ويخشى من التدخل الجراحى خشية أن يفقد البصر كلية.

ويظل اسمه رمزا للجمع بين الشعر والفلسفة، بين الكتابة والتأمل، بين الانعكاف على الداخل والخروج إلى العالم لرؤية ما فيه. هو العاشق للحكمة وشهيدها العصرى مثل سقراط.